الفنون الجميلة عند العرب

بقلم الأستاذ أحمد فهمي العمروسي بك

إنه لجدير بنا نحن ورثة العرب أن نقول كلمة موجزة عن الفنون الجميلة عندهم لنتبين ما كانوا عليه وما صرنا إليه ، وأن نلقي نظرة عظة واعتبار على تلك المدنية البارعة ، مدنية العرب التي استرعت الأبصار وعمت الأمصار؛ عسى أن يكون ذلك مشجعاً لنا آخذاً بأيدينا؛ فان في الماضي أبلغ عبرة ، وفي الذكرى أقوم فائدة .

عقد المؤرخ الفرنسي (المسيو لوركيه) مقالا مسهباً في وصف مدنية العرب في كتابه الحديث (الفن والتاريخ) (١) لا أريد أن أزيد كثيراً على ما جاء فيه ، وهاهو ذا ملخصاً :

إن العرب قبل الاسلام كانوا على هامش الدنيا وفي خارج منطقة التمدين ، راضين من عيشتهم بأيسر الطعام وأهون اللباس ، ضاربين خيامهم حيث يختارون ، يقيمون ما طاب المقام ، ويرتحلون ما حسنت الرحلة ، ولم يكونوا ليشتغلوا بغير حروبهم الداخلية الطاحنة لكلمة تبدر أو هفوة تصدر ، بل كانوا يتغنون بأعمال فروسيتهم وبطولتهم في نظام رائع وشعر ساحر يتدفق حكماً بالغة ويفيض أمثالا سائرة ؛ وهي عيشة على قصورها تنم عن روح مشتعلة ، وفكرة وقادة ، وبأس شديد ، وحماسة نادرة ، وبيان خلاب ، وتنبيء بأوجز عبارة عن أنهم كانوا أمة حرب وشعر .

وما كاد ينبلج فجر الاسلام حتى هبوا إلى الوحدة سراعاً تلبية لنداء النبي الأمي الذي ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً . فلا غرو أن انتقلوا من البداوة إلى الحضارة فجأة ، ووضعوا قدمهم في تاريخ الانسانية ثابتة ، وغيروا معالم الدنيا وحولوا وجهة التاريخ إليهم ، فكانوا ملوك الأمم وقادة الشعوب وورثة الأرض بما ارتجلوا من دولة مترامية الأطراف شاسعة الأكناف تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلانطي ومن زنجبار إلى قلب فرنسا . وتلك دولة وسعت نحو نصف الدنيا القديمة حتى حق لهرون الرشيد أن يقول لسحابة توقع أن تمطر بساحته ولكنها تولت قبل أن تمطر « أمطري حيث شئت يأتني خراجك » .

ورث العرب فيما ورثوا عن الأمم التي دخلت في حوزتهم الفنون والصناعات . وقد أخذوا يحذقونها ويبرعون فيها في مدارس المورثين ، لأنه لم يكن في استطاعتهم أن يرتجلوا فناً كما

---

(1) Lart et l'Histoire par L'orquet

ارتجاوا لهم ملكا ؛ ومع ذلك لم يمض الصدر الأول حتى نبغ منهم البناءون والحفارون والمصورون والنقاشون ، دون أن يروا في شيء من ذلك مخالفة لنصوص كتابهم أو معارضة لشريعة نبيهم ، ولم يقفوا عند حد الحذق والبراعة ، بل تعدوه إلى التفنن والابداع ؛ فنقحوا وصححوا وحذفوا وأضافوا ؛ ثم اخترعوا وابتكروا حتى طبعوا تلك الفنون بالطابع العربي وصبغوها بالصبغة الاسلامية ، حرصاً على شخصيتهم أن تفنى ، وعلى نبوغهم وعبقريتهم أن يذهبا ؛ فأصبحت الروح العربية حيث تكون بارزة واضحة ، يندمج فيها غيرها ولا تندمج في شيء ، وهٰذا خلقت لنفسها فناً يوافق ذوقها ويتمشى مع طبعها . وسرعان ما انتشر في أرجاء تلك المملكة الواسعة انتشار الكهرباء . نعم قد خضعت الفنون الاسلامية إلى حد ما لنواميس الطبيعة المحلية فاصطبغت في كل قطر بصبغته الخاصة ، ولكنها كانت في كل أحوالها — من أندلسي ومغربي وصقلي ومصري وسوري وعراقي وفارسي وهندي ومغولي — إسلامية أصلية كريمة نبيلة تنطق بما للاسلام من إباء ونجدة وشهامة ونخوة .

ولقد برع العرب في سائر ضروب الصناعة فشادوا البنيان الفخم من مواد أتقنوا صناعتها كالحجر والرخام المحفور أو المنقوش والخشب المنجور ، وزوقوا باطن أبنيتهم بالرسوم والصور الفائقة ، وكفتوا النحاس الذي أدخلوه في أبواب دورهم وقصورهم ومساجدهم بالفضة والذهب ، وموهوا أدواتهم وأوانيهم الزجاجية والخزفية بالميناء ، ولبسوا بالأحجار الكريمة والعاج نفائسهم وزخارفهم .

وإني أورد هنا قصة أنقلها عن المقريزي للاستدلال بها على شغف القوم بفن التصوير وتنشئة ومبلغ عنايتهم بالمصورين ، حتى دون بعض المؤرخين أسماءهم في كتاب خاص سماه « ضوء النبراس وأنس الجلاس في أخبار المزوقين من الناس » (١)

قال المقريزي : « كان اليازوري سيد الوزراء الحسن بن علي بن عبد الرحمن أحد وزراء الفاطميين مشغوفاً بالنظر إلى الصور والكتب المزوقة ، ولوعاً بالتحريض بين المصورين وإغراء بعضهم ببعض ؛ وقد حدث مرة أن استدعى ابن عزيز المصور العراقي لمنافسة المصور المصري المعروف بالقصير ، لأنه كان يشتط في أجرته ، فلما أحضر الاثنين في مجلسه قال ابن عزيز : « أنا أصور صورة إذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط » ، وقال القصير : « لكن أنا أصورها فإذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة في الحائط »

فقال الوزير : « هذا أعجب » وأمرهما أن يصنعا ما وعدا به ، فصورا صورتي راقصتين في حنيتين مدهونتين متقابلتين ، هذه ترى كأنها داخلة في الحائط ، وتلك ترى كأنها خارجة منها .

(١) وإني لشديد الأسف لأن هذا الكتاب لم يقف له أحد على أثر — على ما أعلم — في مكتبات الشرق والغرب

صور القصير الراقصة بثياب بيض وقد دهن الحنيَّة بالسواد، فكانت كأنها داخلة فيها، وصورها ابن عزيز بثياب حمراء وقد جعل الحنية صفراء، فكانت كأنها خارجة منها، فاستحسن البازوري ذلك منهما وخلع عليهما ووهب لها كثيراً من الذهب .

وأما مصنوعات الخزف فإنا نقتطف هنا بعض جمل عنها من المحاضرة التي ألقاها حضرة الأستاذ المرحوم علي بهجت بك مدير دار الآثار العربية - مندوباً للحكومة المصرية أمام مؤتمر تاريخ الفنون الدولي العام، الذي انعقد في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٢ بمدينة باريس - عن نتيجة عمليات الحفر في أطلال الفسطاط، وخصوصاً ما كان منها ذا علاقة بالأبنية وزخرفها والمصنوعات الخزفية وطلائها. قال بعد كلام طويل :

« وجدنا من بقايا مصنوعات الخزف على الخصوص عدداً عظيماً جداً دخل منها في دار الآثار العربية من القطع النفيسة ما أفردنا له قاعتين ؛ وكان الموجود من ذلك لا يتجاوز مائة قطعة قبل الحفر ، أما الآن فلا يقل عن خمسة آلاف قطعة ؛ وفي وسعنا أن نقول إننا نملك الآن مجموعة لا تقوم ، بل لا مثيل لها في العالم ، حتى إنني رأيت من الضروري أن نجعلها موضوع بحث تام، فوضعت له مؤلفاً في مائة صفحة تتبعه ألواح عددها مائة وخمسون » إلى أن قال : «وكل هذا الخزف يمتاز بتفنن الصانع في زخرفته وبإتقان العمل ، فبينا ترى على بعضها زخارف كتابية ؛ وشارات للأمراء ؛ ترى على البعض الآخر زخارف نباتية وحيوانية وبشرية » ؛ إلى أن قال أخيراً : «ولا يبعد أن تكون مصر الإسلامية مصدراً لبعض الأساليب الفنية المصطلح عليها في صناعة الخزف بفضل ما ورثته عن قدماء المصريين وعدم انقطاع صلة التواتر في هذه الصناعة » اهـ

ومما هو جدير بالذكر هنا أن العرب راعوا في كل هذه الزخارف الروح الدينية الناطقة - أن نضرة الدنيا وزخرفها وبهجتها وزينتها صائرة إلى الزوال ؛ وأن الجمال الباقي والنعيم المقيم الخالد إنما هو في الدار الآخرة ؛ وذلك بما استعملوه في النقوش والتراويق من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار الناطقة بهذا المعنى ، الأمر الذي جعل الفن يساير الدين جنباً لجنب ، حتى قال علماء الفرنجة إنهم لم يروا ديناً ائتلف مع الفنون ائتلاف الدين الإسلامي معها ؛ فكان شعارهم في فنونهم هذه كما قال شاعرهم :

تأمل سطور الكائنات فانها ... من الملأ الأعلى إليك رسائل

وقد خط في لوح الوجود يراعها ... ألا كل شيء ماخلا الله باطل

ولعل هذا وما رسخ في نفوسهم من كراهة التماثيل التي تأصلت عندهم منذ الانتقال من عبادة الأصنام والأحجار إلى عبادة الله الحقة كان الصارف لهم عن عمل التماثيل ونحت الأحجار، وعلى الأخص ما كان كاملاً من إنسان وحيوان ؛ ومع ذلك فقد قال أحد المؤرخين الفرنسيين ، وقد قال حقاً : إن هذا لم يضرهم شيئاً ؛ فقد كان عندهم من حسن البيان ورقة

الوصف مايغنى عن إقامة هذه التماثيل ، بل كانوا يصورون فى اللفظ ما لعله يخفى فى المشاهدة .

وإنى أسوق للقراء وصفين بليغين (١) ليتبينوا أن قوة القلم وحسن البيان قد يؤديان من المعانى والخيالات ما تعجز عنه ريشة أكبر المصورين ويد أمهر المثالين .

وصف عمر بن الخطاب

قال معاوية بن أبى سفيان لصعصعة بن صوحان : « صف لى عمر بن الخطاب » فقال : « كان عالماً برعيته ، عادلا فى قضيته ، عارياً من الكبر ، قبولا للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحرياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير محاب للقريب ، ولا جاف للغريب »

وصف على بن أبى طالب

قال معاوية لضرار الصدائى : ياضرار صف لى علياً ، قال : اعفنى ياأمير المؤمنين ، قال: « لتصفنه » قال : « أما إذ لابد من وصفه ، فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ماقصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا ، لانكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لايطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم (٢) ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يادنيا إليك عنى ، غرّى غيرى ، إلىَّ تعرضت أم إلىَّ تشوقت ؟ هيهات هيهات !! قد باينتك ثلاثاً لارجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك حقير (٣) ، وخطبك يسير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق »

فبكى معاوية ، حتى أخضلت (٤) دموعه لحيته ، وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه ياضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها .

أحمد فهمى العمروسى

---

(١) نقلا من كتاب معراج البيان تأليف الاستاذ الشيخ علاء سلامه المدرس بدار العلوم (٢) السليم الملسوع، وإنما سمي كذلك تفاؤلا له بالسلامة كما سميت البيداء مفازة مع أنها مهلكة (٣) الخطر : القدر والمنزلة (٤) أخضلت : بلت .